نحو تأصيل نظريّة تماسكيّة نصّيّة عربيّة

أ/- الطيب العزالي قواوه
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات جامعة العربي التبسي- تبسة

تاريخ الارسال: 2018-01-02 / **تاريخ القبول:** 2018-06-24 / **تاريخ النشر:** 2020-01-30.

- **الملخص:**

إنّ مصطلح التماسك النصي الذي يندرج تحت علم لغة النص أو لسانيات النص صعب الاتفاق على مفاهيمه وتصوراته ومناهجه نظرا لكثرة منابعه وتعدد مشاربه المعرفية هذا من جهة، ومن جهة أخرى عندما تقصينا هذا المصطلح في التراث العربي القديم ألفيناه حاضرا عند البلاغيين والنقاد والمفسرين في حبك الكلام وتماسكه، فاستخدموا مصطلحات نصية عديدة، مثل: التلاحم، الالتئام، النظم، تناسب الأجزاء، الانسجام، فاكتست بذلك قضية التماسك لديهم أهمية بالغة حتى يمكن عدّها نظرية نصية بالأساس. أما عند المحدثين فقد لقي هذا المصطلح النصي اهتماما منقطع النظير، وكل شيء في التحليل النصي.

- **الكلمات المفتاحية:** التماسك النصي؛ السبك؛ الحبك.

Pour une fondation d'une théorie arabe de la cohésion textuelle

Résumé :

Le terme de " cohésion ", une des catégories de la linguistique du texte, évoque des notions , des conceptions et des approches qui n'ont pas encore atteint une unanimité, ceci s'explique par la diversité des références et la multiplicité de ses appuis épistémologiques. D'ailleurs, une exploitation de ce terme dans les anciennes études arabes confirmerait une certaine présence de la notion de cohésion chez les rhétoriciens, les critiques et les exégètes sous diverses appellations voisines. Ainsi, il est fondé de dire que la cohésion avait une certaine importance chez eux mais il est de l'exageré de prétendre qu'il y avait une théorisation. Mais, chez les contemporains, la cohésion consiste une notion fondamentale dans toute analyse textuelle.

Mots clés: cohérence textuel, cohésion, cohérence.

For a fundation of an Arabic theory of textual coherence

Summary :

The term "coherence", one of the categories of textual linguistics evokes notions, conceptions and aspirations that have not yet reached unanimity, this is explained by the diversity of references and the multiplicity of its epistemological supports. Moreover, an exploitation of this term in the ancient Arabic studies confirms a certain presence of the notion of coherence among rhetoricians, critics and exegetes under various neighboring names. Thus, it is correct to say that coherence had a certain importance for them but it is exaggerated to pretend that there was a theorization. But among contemporaneous, coherence is a fundamental notion in any textual analysis.

Keywords: textual coherence, cohesion, coherence.

تمهيد:

إنّ ما هو متفق عليه أنّ التماسك « ولد من رحم البنيوية الوصفية القائمة على أجرومية الجملة»[1]، حيث انطلقت النداءات بضرورة الخروج من بوتقة التحليل على مستوى الجملة إلى التحليل على مستوى النص*.

وأوائل من خطّ معالم هذا العلم** "زيليج هاريس" (Zellig Harris) تلميذ "بلومفيلد" (Bloom field) وأستاذ "تشومسكي" (Tchomisky) في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، عندما قدّم بحثا بعنوان تحليل الخطاب (Discours analyse) سنة 1952م، الذي اهتم فيه بتوزيع العناصر اللغوية في النصوص ومدى ارتباطها بالسياق الاجتماعي، ثم اتبعه "دل هيمز" (Dell Hymes) سنة 1960م، الذي ركز على الحدث الكلامي من مواقفه الاجتماعية، ثم توالت الدراسات في هذا المجال متجهة نحو التطور بظهور أسماء كثيرة مثل: "هاليداي" (Halliday) سنة 1973م، و"فان دايك" (Van Dick) سنة 1972م[2].

أولا: مفهوم التماسك النصي لغة واصطلاحا:

وردت المادة اللغوية (مسك) في المعاجم العربية بمعان كثيرة؛ منها الشدة والصلابة وعدم التفكّك، ودليل ذلك ما ورد في أساس البلاغة لـــ"الزمخشري" (ت538ه) قوله: « أمسك الحبل وغيره، وأمسك بالشيء ومسك وتمسك واستمسك وامتسك. و (أمسك عليك زوجك) وأمسكت عليه ماله: حبسته، وأمسك عن الأمر: كفّ عنه. وأمسكت واستمسكت وتماسكت أن أقع عن الدابة وغيرها. وغشيني أمرٌ مقلق فتماسكت. وفلان يتفكّك ولا يتماسك، وما تماسك أن قال ذلك: وما تمالك، وهذا حائط لا يتماسك ولا يتمالك. وحفر في مسكة من الأرض: في صلابة »[3].

ومنها الرأي والعقل، وحبس الشيء؛ جاء في لسان العرب لـــ"ابن منظور" (ت711ه): « وَرَجُلٌ ذُو مُسْكَةٍ ومُسْكٍ أَيْ رأْيٍ وَعَقْلٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ. وَفُلَانٌ لَا مُسْكَة لَهُ أَيْ لَا عَقْلَ لَهُ. وَيُقَالُ: مَا بِفُلَانٍ مُسْكَة أَيْ مَا بِهِ قوَّة وَلَا عَقْلٌ. وَيُقَالُ: فِيهِ مُسْكَةٌ مِنْ خَيْرٍ، بِالضَّمِّ، أَيْ بَقِيَّةٌ. وأَمْسَكَ الشيءَ: حَبَسَهُ. والمَسَكُ والمَسَاكُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُمْسِك الماءَ؛ عَنِ ابْنِ الأَعرابي. وَرَجُلٌ مَسِيكٌ ومُسَكَةٌ أَيْ بَخِيلٌ. والمِسِّيك: الْبَخِيلُ، وَكَذَلِكَ المُسُك، بِضَمِّ الْمِيمِ وَالسِّينِ، وَفِي حَدِيثِ هِنْدِ بِنْتِ عُتْبة: أَنَّ أَبا سُفْيَانَ رَجُلٌ مَسِيكٌ أَيْ بَخِيلٌ يُمْسِكُ مَا فِي يَدَيْهِ لَا يُعْطِيهِ أَحداً وَهُوَ مِثْلُ الْبَخِيلِ وَزْنًا وَمَعْنًى »[4].

ومنها الاعتدال؛ يقول "الزّبيدي" (ت1205ه) في تاج العروس: « وفي صِفَتِه صلّى اللّهُ عليهِ وسَلّمَ بادِنٌ مُتَماسِكٌ أَرادَ أَنّه مَعَ بدانَتِه مُتَماسِكُ اللَّحْم ليس مُستَرخِيَه ولا مُنْفَضِجَه، أي أَنَّه مُعْتَدِلُ الخَلْقِ كأَن أَعْضاءهُ يمْسِكُ بعضُها بعضًا »[5].

وعلى غرار سائر المعاجم الأخرى، فالمعنى اللغوي للتماسك ينحصر في الشدة، والصلابة، والاعتدال، والاحتباس، وكلها توحي بالترابط التام بين الأجزاء بعضها ببعض، وعدم تفكّكها وانفصالها.

إنّ التماسك هو « الكيفية التي تمكّن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النص، ومعها يصبح النص وحدة اتصالية متجانسة »[6] فالقارئ له الدور الأساس في اكتشاف تماسك النص من عدمه؛ لأنه هو الذي يبث الحياة فيه بقراءته واستيعابه والتفاعل معه، وبهذا التفاعل المتبادل يصبح النص كلاّ موحّدا متماسكا.

وهذا المصطلح استخدم للتفرقة بين النص واللانص؛ لأن النص ليس مجرد تضام لمجموعة من الجمل بطريقة عشوائية، بل هو عبارة عن مجموعة من العلاقات المفهومية التي يستخدمها القراء والكتاب في تعاملهم مع النص[7].

وعرّفه "أحمد عفيفي" بقوله: « هو وجود علاقة بين أجزاء النص أو جمل النص أو فقراته؛ لفظية أو معنوية، وكلاهما يؤدي دورا تفسيريا؛ لأن هذه العلاقة مفيدة في تفسير النص، فالتماسك النصي هو علاقة معنوية بين عنصر في النص وعنصر آخر يكون ضروريا لتفسير النص »[8].

ويمكن الربط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي على النحو الآتي[9]:

– الاحتباس في النص: يعني أن يكون للنص بداية ونهاية، والرسالة محبوسة بينهما.

– الاعتدال في النص: يعني أن يكون للنص معنى وهدف.

– الارتباط في النص: يعني أن تكون الأفكار فيه والمعاني، متعلقا بعضها ببعض تعلّقا منطقيا، ولذا يعد التماسك مصطلحا وظيفيا.

وعليه يقوم التماسك النصي على خاصيتين؛ أولاهما: الإتساق (Cohesion) ذات طبيعة سطحية شكلية تشمل الروابط اللغوية المختلفة من إحالة، واستبدال وحذف...، وثانيهما: الانسجام

(Coherence) ذات طبيعة دلالية تشمل الروابط الدلالية بين العناصر اللغوية المتعددة من سياق، وتغريض، وعموم/خصوص، وإجمال/تفصيل...إلخ.

ثانيا: التماسك النصي في الدرس العربي القديم والحديث:

إذا كان هذا العلم (لسانيات النص) قد استقل بوصفه نظرية على يد علماء الغرب فإن جذوره في الذخائر العربية واضحة[10]، حيث وجدت هذه الذخائر كأجزاء من موضوعات أخرى متفرقة في بعض الميادين، كالبلاغة، والنقد، واللغة، والنحو، والتفسير، وعلوم القرآن، لذلك فالدارس لا يجدها كمؤلفات مستقلة متخصصة بهذا العلم[11].

إنّ جهود البلاغيين والنقاد والمفسرين تتحدث عن أهمية الدراسة النصية لذلك وظفت العديد من مصطلحات ومفاهيم الدراسة النصية أو التحليل النصي، فقد كان النص الأدبي عند البلاغيين والنقاد، والنص القرآني عند البلاغيين والعاملين في حقل التفسير وعلوم القرآن، المادة النصية التي نهضت عليها دراسات القدامى وتبصراتهم في حبك الكلام وتماسكه[12]، حيث كان لقضية التماسك أهمية بالغة فقد عالجوه معالجة ذكية، وعبّروا عنه من خلال استخدام مصطلحات متعددة مثل: التلاحم، النظم، تناسب الأجزاء، الانسجام، المشاكلة[13].

إنّ القرآن كالكلمة الواحدة لشدة تماسك آياته وسوره، فتتماسك فيه الآية مع الآية والآية مع السورة والسورة مع السورة، على الرغم من اختلاف السور فمنها المكية التي ترتكز على حقيقة الألوهية والعبودية، ومنها المدنية التي موضوعها العبادات والتشريعات، فهذه الموضوعات رغم اختلاف أسلوبها وتفاوت فترات نزولها، إلا أنها تتسم بالتماسك الموضوعي أو الوحدة الموضوعية؛ لأنها تتناول موضوعا عاما موحّدا وهو إفراد الله وتوحيده بالعبادة[14].

ولعل من أبرز الذين نظروا إلى النص القرآني نظرة تماسكية نصية "عبد القاهر الجرجاني" (ت471هـ)، الذي أكد على أن النص القرآني نص واحد ذو بنية كلية واحدة، فقد أجاب "الجرجاني" عن سؤاله عن السبب الذي أعجز العرب من النص القرآني بقوله: « تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، واتقانا وإحكاما ... »[15]. وفي موضع آخر يقول عن « معنى التماسك بصورة تكاد تكون أوضح من شرحها في العصر الحديث »[16]: « واعلمْ أن مما هو أصل في أن

يدِقَّ النظرُ ويَغمُض المَسلَك في توخّي المعاني التي عرفتَ، أن تَتّحد أجزاءُ الكلام، ويَدخل بعضها في بعض، ويَشتدَّ ارتباط ثان مِنْها بأَوّل، وأن يُحتاج في الجملة إلى أن تَضعَها في النّفس وضْعًا واحدًا، وأن يكون حالُكَ فيها، حال الباني يضع بِيمينه ههنا، في حال ما يَضَع بِيساره هناك. نعم وفي حال ما يُبصِر مكان ثالث ورابع يَضعُهما بعد الأوّلين ... واعلمْ أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبّرته، أن لم يُحتَج واضِعُه إلى فكر ورويّة حتّى انتظم، بل ترى سببله في ضَمِّ بعضِه إلى بعض سبيل من عَمَد إلى لآلٍ فَخَرَطها في سلكٍ لا يبغي أكثر من أن يَمْنعَها التفرُّق ... »[17].

لقد أشار "الجرجاني" من خلال هذين القولين إلى قضايا تتعلق بالتحليل النصي وأولها النظرة الكلية للنص، وثانيها ذكره لأهم المصطلحات التي تندرج في لسانيات النص، كالاتساق (التماسك) المرتبط بالجوانب الدلالية المتعلقة بما يحيط بالنص، والإحالات الخارجية ومصطلح الالتئام الذي يقابل التماسك النصي[18].

ويفرّق "الجرجاني" بين نظم الحروف في الكلام ونظم الكلمات في النص، فنظم الكلمات « يقتفي في نظمها آثار المعاني، وتَرَتُّبِها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضِه مع بعض، نظيرا للنَّسْج والتأليف والصياغة والبناء وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضِها مع بعض ... والفائدة في معرفة هذا الفرق، أنَّك إذا عَرَفتَه عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها »[19].

ويمعن "الجرجاني" النظر في بيان معنى النظم* ويزيد في توضيحه وتفسيره فيورد في كتابه نصا طويلا لخص فيه القضايا المتعلقة بالنظم فمن هذا النص قوله: « واعلمْ أن ليس النظم إلا أن تَضَع كلامك الوَضْع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمَل على قوانينه وأُصولِه، وتَعرفَ مناهجَه التي نُهجَتْ فلا تَزِيغ عنها، وتَحفَظَ الرسومَ التي رُسِمَت لكَ فلا تَخِلَّ بشيء منها، وذلك أنَّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظِم بِنَظمه غير أن ينظرَ في وُجوهِ كلّ باب وفُروقِه ... »** [20]، فالجرجاني يؤكد بأن النظم يكمن في توخي معاني النحو ووضع الألفاظ موضعها في الترتيب والتأليف والاختيار. فبرزت بذلك قيمة كتابه (دلائل الإعجاز) النصية في أنه جمع بين علوم كثيرة كـــ(النحو) و(علم المعاني) و(علم البيان) و(التفسير) و(دلالة الألفاظ) و(المعجمية) و(المنطق) ... وألّف بين أشتاتها في تناغم عجيب واتخذ منها أدوات معرفية متضافرة على تحقيق هدف واحد هو خدمة النص القرآني وبيان إعجازه. وقد كانت فكرة الانسجام النصي (textuelle Cohérence) واضحة في ذهن

"عبد القاهر" وضوحا متميزا حتى إننا نجده يعبر عنها بقوله: « واعلم أن مَثَلَ واضعِ الكلامِ مَثَلُ من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة فيذيبُ بعضَها في بعض حتى تصير قطعة واحدة ... »[21].

ولم يقف "الجرجاني" عند هذا الحد بل تعدّاه إلى وصف الطرق والوسائل التي يتم بها انسجام النص وتماسكه كطريقة الوصل والفصل، والتي فيها يتمثل التماسك الشكلي والتماسك الدلالي وصولا إلى التماسك الكلي، لذلك نجده تعرّض لبعض أدوات العطف كالواو، والفاء، وثم...الخ، التي تسهم جميعها في الترابط الشكلي الظاهر سطحيا، وفي هذا يقول: « فأمْر العطف إذن موضوع على أنك تعطِفُ تارة جملة على جملة، وتَعْمِد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطفُ بعضا على بعض ثم تعطفُ مجموع هذي على مجموع تلك »[22]. وإضافة إلى اهتمامه بارتباط الجمل بعضها بعض بواسطة الأدوات كالواو، فإنه اهتم أيضا بالعلاقة الخفية القائمة بين الجمل المشكلة للنص/الخطاب، وهي علاقة لا تعتمد على رابط شكلي ظاهر سطحيا[23]. حيث مثّل لهذه العلاقة أمثلة من القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[24]، «لم يأتِ معطوفاً نحوَ (وكأنَّ في أذنيه وقراً)؛ لأنَّ المقصودَ من التشبيه (بِمَنْ في أذنيه وقْر)، هُوَ بعينه المقصودُ مِنَ التشبيه (بِمَنْ لم يسمع) إلاَّ أنَّ الثاني أبلغُ وآكَدُ في الذي أُرِيدَ؛ وذلك أنَّ المعنى في التشبيهين جميعاً أنْ يَنْفِيَ أن يكونَ لتلاوةِ ما تُلِيَ عليه من الآياتِ، فائدَةٌ معه، ويكونَ لها تأثيرٌ فيه، وأنْ يجعلَ حالَه إذا تُلِيتْ عليه كحالِه إذا لم تُتْلَ، ولا شُبْهةَ في أن التشبيه بِمَنْ في أذنيه وقرٌ أبلغُ وآكَدُ في جعلِه كذلكَ مِنْ حيثُ كان مَنْ لا يصحُّ منه السَّمْعُ – وإن أراد ذلكَ – أبعدَ مِنْ أنْ يكونَ لتلاوةِ ما يُتْلَى عليه فائدة من الذي يصحُّ منه السَّمع »[25]. وبهذا يتضح « أن تأكيد جملة لأخرى وسيلة هامة من وسائل تماسك النص/الخطاب، رغم أن كيفية الاتصال معنوية غير معتمدة على رابط شكلي»[26]. فالجرجاني كان على بعد قريب من النصية المعروفة اليوم.

وغير قريب من "الجرجاني" نجد "حازما القرطاجني" (ت684هـ) الذي أفاض البحث في الوسائل والعلاقات والكيفيات التي يتماسك بها النص والتي لم تظهر عند غيره كما ظهرت في إنتاجه[27]، حيث يقول في شأن العلاقات (كالجزء والكل، الخاص والعام ...) التي تكون بين الفصول*، والتي يعتبرها أساسية في تحقيق تماسك هذه الفصول: « ومن القصائد ما يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمنها معاني جزئية تكون مفهوماتها شخصية، ومنها ما يقصد في فصولها أن تُضمّن المعاني الكلية التي مفهوماتها جنسية أو نوعية، ومنها ما يقصد في فصولها أن

تكون المعاني المضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية والكلية »[28]، هذا وقد استخدم عدة مفاهيم في معنى ما يكون بين المنطوقات المتوالية أو أجزاء النص الواحد من أشكال للترابط المضموني، كالتناسب والاقتران، والالتئام، وعندما تطرق إلى هذا أشار أيضا إلى قوانين الابتداء أو ماسماه هو"بشروط الإبداع في المبادئ" وهو ما يعرف في الدراسات النصية المعاصرة بمصطلح "التغريض"، حيث يقول في ذلك: « ملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلم من جميع جهاته: إذا كان مقصده الفخر، كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب، كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد »[29].

وقبل "الجرجاني" و"القرطاجني" نجد "الجاحظ" (ت255هـ) هو الآخر قد أدلى بدلوه في قضية التماسك حيث عندما عرف الشعر اشترط فيه الترابط والتماسك، إذ يقول: « وأجود الشِّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، وسُبِك سَبْكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان »[30]، فهو بهذا يذم ويستكره الشعر الذي لا تنسجم ولا تلتحم ولا تترابط ألفاظه مع بعضها البعض، وفي موضع آخر يضيف أن الشعر الجيد تكون « أجزاء البيت فيه متفقة حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وكأن الكلمة بأسرها حرف واحد، فتلاحم الأجزاء عند الجاحظ يتمثل في تلاحم الأبيات المشكلة للقصيدة، وتلاحم الأجزاء المشكلة للبيت، وتلاحم الأجزاء المشكلة للفظ (الحروف والأصوات)، وأبرز العناصر التي انصب اهتمام الجاحظ عليها هي الاتساق الصوتي »[31]، فالتماسك أو الترابط بين أجزاء النص شرط ومعيار أساس في فهم المعاني والتواصل بين المرسل والمتلقي.

ويرى "حلمي خليل" أنّ "الجاحظ" يميّز بصورة جوهرية بين مستويات التركيب أو التأليف المختلفة، ويؤكد على أنه كانت له دراية بالنظم الذي يصب في نظام واحد متناسق متكامل هو النظام اللغوي (Linguistique System) للغات الإنسانية من ناحية، والنظام اللغوي الخاص بلغة معينة من ناحية أخرى، وهي كذلك دراسة للغة في صورتها الفنية والأسلوبية ثم استعمالها كوسيلة إيصال يومية في المجتمع[32].

ونجد كذلك "ابن طباطبا" (ت982هـ) الذي يقول في هذا الموضوع (التماسك النصي): « وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم

بينها لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه ...؛ كما أنه يحترز من ذلك في كل بيت؛ فلا يباعد كلمة عن أختها، ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها، ويتفقد كل مصراع، هل يشاكل ما قبله ؟، فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا يتنبه على ذلك إلا من دق نظره ولَطُف فهمه »[33]، فانتظام المعاني واتصال الكلام بعضه ببعض أمور ينبغي لها أن تفهم وتراعى في ضوء الاستمرارية المعنوية التي توفر للنص/الخطاب حبكا طوليا هو نواة أبنيته الصغرى، كما توفر له حبكا كليا هو نواة أبنيته الكبرى، وهما يؤديان بالضرورة إلى المشاكلة بين أجزاء النص[34].

أمّا "أسامة بن منقذ" (ت530 هـ) فقد أورد نصا مهمّا في تعريف السبك حيث يقول: « السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره »[35]، وقال في موضع آخر: « خير الكلام المحبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض »[36]، كقول زهير بن أبي سلمى: (من بحر البسيط).

يَطعَنُهُم ما اِرتَمَوا حَتّى إِذا اِطَّعَنوا ضارَبَ حَتّى إِذا ما ضارَبوا اِعتَنَقا

وإذا كانت هذه الإشارات هنا خاصة بالتماسك والانسجام بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد فإن علماء التفسير تجاوزوا هذا إلى التماسك بين طائفة من النصوص في مدونة كبرى[37]، فظهر التماسك عندهم على أبعاد كثيرة، حيث كانت نظرتهم إلى القرآن نظرة كلية باعتباره وحدة متكاملة[38].

وخير من جسّد هذا العمل الإمام "جلال الدين السيوطي"(ت911هـ) من خلال كتابه "تناسق الدرر في تناسب السور" الذي عمد فيه إلى خاصية التناسب في المعاني والمقاصد بين نصوص السور، وهي المنظور اللغوي العام الذي بنى عليه كتابه[39]، وعلى منواله وضع قاعدته العامة التي على وفقها رتّب السور، حيث يقول: « إن القاعدة التي استقر بها القرآن: أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه، وقد استقر معي ذلك في غالب سور القرآن، طويلها وقصيرها»[40] وهي القاعدة التي يرى "السيوطي" أنها تحكم ترتيب السور وهي – كما يرى محمد خطابي – تتخذ الجانب العقلاني الإجمال أو التفصيل أساسا لهذا الترتيب[41] كما أن من الأمور التي دلّ عليها استقراؤه النصي، أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإنّ السورة الثانية تكون

خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد، وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسبا لأولها[42].

وحسب هذه الدراسة نرى أن هذا النص قد أحكمت معانيه ومقاصده علاقات دلالية ومضمونية وفرت له خاصية الحبك التي تصير كل سورة معها وحدة من وحدات الخطاب القرآني المترابطة[43]، الذي يمكن أن يشبّه بسلسلة تنشدّ حلقاتها بعضها إلى بعض[44].

وأما عن التماسك النصي في الدرس العربي الحديث فقد حظي باهتمام كبير من طرف علماء لسانيات النص باعتباره خاصية دلالية للخطاب[45]، لدرجة اعتباره لدى البعض أنه كل شيء في التحليل النصي، إذ بواسطته نميز بين النص واللانص كما رأى ذلك "هاليداي" و"رقية حسن" اللذان اعتبرا روابط التماسك بين الجمل هي المصدر الوحيد للنصية[46]. وهذه النصية لا تتحقق لأي مقطع لغوي إلا إذا توافرت في هذا الأخير خصائص معينة تجعله كلا موحدا وتميزه على ما هو نص وعلى ما ليس نصا، والشكل التالي يوضح ذلك[47]:

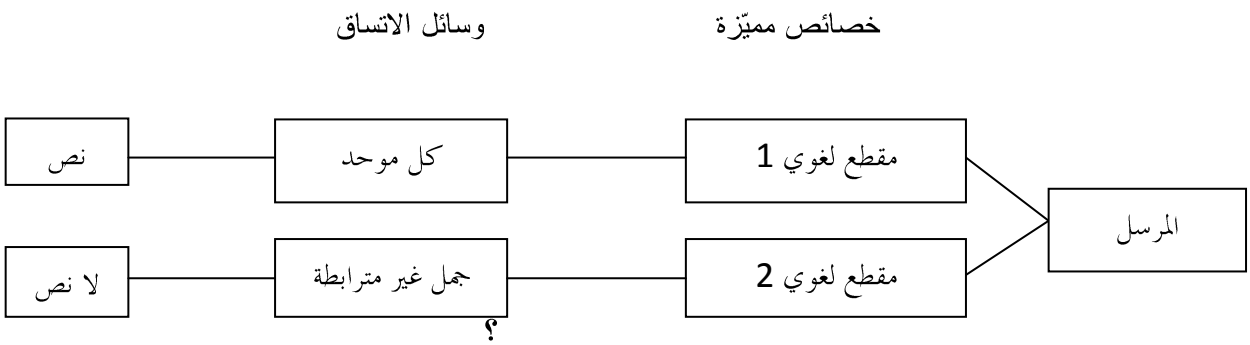

وأنّ حضوره (التماسك) واجب، ذلك أنّ كل جملة تمتلك بعض أشكال التماسك عادة مع الجملة السابقة مباشرة، هذا من جهة،ومن جهة أخرى كل جملة تحتوي على الأقل على رابط واحد يحيلها بما حدث مقدما، وبعض آخر من الجمل يمكن أنْ يحتوي على رابط يربطها بما سوف يحدث[48]، ويُعتبر مصطلح التماسك كما يرى محمد مفتاح المقولة العامة[49].

أما المفاهيم الخاصة بالتماسك فهي عديدة ومتباينة أبرزها الاتساق، الانسجام، الترابط، التنضيد، السبك، الحبك ... الخ. غير أننا في البحث واجهتنا إشكالية المصطلح التي تعتبر من أبرز مشكلات النقد الحديث والدراسات الحديثة بصفة عامة، إذ وجدنا عدة مصطلحات بمفهوم واحد – تقريبا –

ولعل أبرز أسبابها الترجمة، فمصطلح (Cohésion) مثلا في اللغة الانجليزية ترجمه "محمد خطابي" بالاتساق[50]، و"سعد مصلوح" بالسبك[51]، واستعمل مفهومه تحت مصطلح: التضام، الترابط... الخ.

أما مصطلح (Cohérence) فقد ترجمه "سعد مصلوح" أيضا بالحبك، وتمام حسان بالالتحام[52]، واستعمل مفهومه "محمد خطابي" بلفظ الانسجام[53]؛ لكنْ ما لاحظناه أنه يمكن تقسيم كل هذه المصطلحات إلى قسمين كبيرين: قسم يهتم بالمستوى السطحي للنص (سندرجه تحت لفظ السبك)، وقسم يهتم بالمستوى الدلالي (وسندرجه تحت لفظ الحبك) ليس من باب التفريق ولكن حتى نستطيع الوصول إلى مفهوم التماسك بالمقولة العامة، ذلك أنّ الاتساق اللغوي لا يمكن أنْ يعزل مستوى من مستوياته الصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية، بل إنّ هناك من يعتبر أنّ هذا المزج خاصية جوهرية للوصف النحوي تفرقه عن الوصف البلاغي[54].

أ- السبك (الاتساق): (Cohésion)*

عدّه أغلب الباحثين متصلا بالبنية السطحية الشكلية للنص لاشتماله « على الإجراءات المستعملة في توفير الترابط بين عناصر ظاهر النص، كبناء العبارات والجمل واستعمال الضمائر وغيرها من الأشكال البديلة »[55]، التي تترتب على « صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي**»[56]، بواسطة عدة قرائن وعلاقات بين العناصر خاصة الكلمات فيما بينها من تضام، وربط ...[57]؛ أي أنّه يختص بالعلاقات النحوية أو المعجمية المختلفة في النص، وهذه العلاقة تكون بين جمل مختلفة أو أجزاء مختلفة من الجملة[58]، ويؤكد "سعد مصلوح" بأنه « يختص بالوسائل التي تحقق بواسطتها الاستمرارية في ظاهر النص[59]. أما "هاليداي" و"رقية حسن" فقد جعلا هذا المصطلح متضمنا علاقات المعنى لكل طبقات النص التي تميز بين النص واللانص[60]، ذلك لأنهما انطلقا من أن التماسك يرتكز على كيفية تركيب النص باعتباره صرحا دلاليا، أي أن الربط النحوي قائم على أساس دلالي، إذ يقول "عمر عبد الواحد" بأنه ذو جوهر دلالي، ذلك أن العلاقات القائمة بين الجمل والعبارات في أي متتالية نصية ترتكز على أساس دلالي[61].

أما "محمد مفتاح" فقد استعمل مصطلح التضيد للدلالة على الربط بين الكلمات أو الجمل أو بين الجمل والكلمات (مستوى ظاهري) الذي اعتبره مقياس الانتقال من معنى إلى معنى[62].

فالسبك « يعني العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى، ومن بين هذه الأدوات المرجعية »[63]،

وعليه فالسبك يهتم بالعلاقات بين أجزاء الجملة، وأيضا بين العلاقات بين جمل النص وبين فقراته، بل بين النصوص المكونة للكتاب ومن ثم يحيط [السبك] التماسك بالنص كاملا داخليا وخارجيا[64]، فالسبك يهتم بتعالق وترابط القضايا، ومنه تحدد النصية (Textualité) كما يلي:

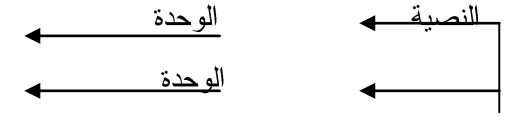

يوجد السبك حينما توجد علاقة قضوية بين الجمل، يعني أن السبك علاقة صريحة بين القضايا تعبر عنها الجمل، وتتجلى هته العلاقة من خلال المرور على مستويين، وهما المستوى النحوي والمستوى المعجمي اللذان يؤكدان فعالية [السبك] الاتساق وإبراز حدوده[65].

1- السبك المعجمي (Lexical): ويكون بين المفردات والألفاظ ويتحقق بوسيلتين هما:

- التكرار (Récurrence): ويقصد به تكرار لفظين يكون المرجع فيهما واحد.
- التضام أو المصاحبة المعجمية[66] (Collocation): ويراد به العلاقات القائمة بين الألفاظ في اللغة، كعلاقة التضاد وعلاقة التقابل، وغيرهما من العلاقات.

2- السبك النحوي (Grammatical): ويتحقق بالعطف والإحالة والوصف، وغيرها.

ب- الحبك (الانسجام): (Cohérence)

ذكرنا آنفا أنّ السبك مرتبط بالبنية السطحية للنص؛ أما هذه المصطلحات فمرتبطة بالبنية العميقة للنص الكامنة على « مستوى التصورات والمفاهيم التي تشكل عالم النص »[67]، فتدرس تشكيلة هذه المفاهيم والعلاقات التي يستند إليها ظاهر النص إذ يرى "فان دايك" أنّ التماسك « يتحدد على مستوى الدلالات حين يتعلق الأمر بالعلاقات القائمة بين التصورات والتطابقات والمقارنات والتشابهات في المجال التصوري، كما يتحدد على مستوى الإحالة أيضا أي ما تحيل الوحدات المادية في متوالية نصية »[68]، وهذا المصطلح عند "ديبوجراند" (Robert Alain de Beaugrand) و"دريسلر" (wolf gang dresslar) « يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص (textral word)، ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم (concepts) والعلاقات (relation) الرابطة بين هذه المفاهيم »[69] .

من قول "ديبوجراند" و"دريسلر" يتضح أن الحبك أو الانسجام هو ذلك المعيار الذي يختص بالاستمرارية المتحققة للنص، أي استمرارية الدلالة المتولدة عن العلاقات المتشكلة داخل النص، ويقوم هذا الانسجام عن طريق تحقق العديد من العلاقات الدلالية بين أجزاء النص مثل[70]:

أ- علاقات الربط: كالوصل والفصل، والإضافة، والعطف ... الخ.

ب- علاقات التبعية: كالإجمال والتفصيل، والظرفية، والسببية، والشرط والجزاء، والعموم والخصوص... الخ. ويرى "محمد خطابي" أنه « ليس هناك نص منسجم في ذاته، ونص غير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي، بل إن المتلقي هو الذي يحكم على نص بأنه منسجم وعلى آخر بأنه غير منسجم »[71].

نخلص في الأخير إلى أنّ التماسك بالمقولة العامة هو « العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية وبين النص والبيئة المحيطة »[72]، ويهدف إلى تحديد الطريقة التي ينسجم بها النص ويكشف من خلاله عن الأبنية اللغوية وكيفية تماسكها وتجاورها[73].

ونخلص في نهاية عرضنا هذا إلى أن النظرية التماسكية النصية الغربية لها أصالتها وجذورها في تراثنا العربي في علوم شتى كعلم البلاغة، وعلم التفسير، وعلم أصول الفقه، وعلم النحو، إلا أن الاختلاف بيّن في أن الغرب جعلوا هذه النظرية اتجاها لسانيا نصيا مستقلا بذاته في دراسة النصوص اللغوية، في حين أن العرب لم يكن عندهم بذلك الاستقلال الذاتي بل كان ضمن علوم ومصطلحات أخرى كما رأينا.

- الهوامش:

---

(1) سعد عبد العزيز مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية أفاق جديدة، عالم الكتب، القاهرة، ط:1،2006، ص:225.

* هناك من يرى أنّ الانتقال من التحليل الجملي إلى التحليل النصي ضرورة للوصول إلى المعنى الكلي، في حين يرى البعض الآخر أنه لا يمكن طرح التحليل الجملي باعتبار الجملة نواة النص. ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 1/ 65- 93.

** مع العلم أن لهذا العلم سابقة تاريخية متمثلة في الدرس البلاغي الذي اهتم بالدرجة الأولى بالمستمع/ القارئ من أجل الإقناع والتأثير، مما له علاقة ذات خصوصية في التحليل النصي. ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص: 5 وما يليها. وينظر: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، ص: 38 - 39.

(2) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 23.

(3) الزمخشري (جار الله أبو القاسم)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، (1419ه-1998م)، 213/2. (مادة: مسك).

(4) ابن منظور(جمال الدين أبو الفضل)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط:3، (1414ه)،488/10. (مادة:مسك).

(5) مرتضى الزبيدي (أبو الفيض محمد بن محمد)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د ط)، (د ت)، 27/337-338. (مادة: مسك).

(6) عزة شبل محمد، علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط:2،(1430ه-2009م)،ص:184.

(7) ينظر: عزة شبل محمد، المرجع نفسه، ص: 185.

(8) أحمد عفيفي، نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق،القاهرة،ط:2001،1م،ص:98.

(9) أنس محمود فجال، الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني، دكنوراه في اللسانيات، جامعة صنعاء، 2009م، ص: 04.

(10) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 115.

(11) ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 41.

(12) ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص: 171.

(13) ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 61.

(14) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 125- 126.

(15) الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شكّله وشرح غامضه وخرّج شواهده وقدّم له ووضع فهارسه ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د ط)، 2002، ص: 39.

(16) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 127.

(17) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 137 - 140، وذكر أمثلة تحليلية لهذا التماسك.

(18) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 126.

(19) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 102.

* وردت كلمة النظم عند كثير من الدارسين العرب القدامى قبل "عبد القاهر الجرجاني" منهم على سبيل التمثيل: بشر بن المعتمر (ت120هـ)، والعتابي (ت213 هـ)، والجاحظ (ت255 هـ)، وابن قتيبة (ت276 هـ) ... الخ.

** استعمل الجرجاني في نصه الطويل ثلاثة مصطلحات أساسية: الوجوه والفروق والموضع، فيقصد بالأول وجوه الخبر، ووجوه الحال مثلا، ويقصد بالثاني الفروق الموجودة بين الوجوه، وبالثالث الموضع الذي يتعلق باللفظ.

* وردت كلمة النظم عند كثير من الدارسين العرب القدامى قبل "عبد القاهر الجرجاني" منهم على سبيل التمثيل: بشر بن المعتمر (ت120هـ)، والعتابي (ت213 هـ)، والجاحظ (ت255 هـ)، وابن قتيبة (ت276 هـ) ... الخ.

** استعمل الجرجاني في نصه الطويل ثلاثة مصطلحات أساسية: الوجوه والفروق والموضع، فيقصد بالأول وجوه الخبر، ووجوه الحال مثلا، ويقصد بالثاني الفروق الموجودة بين الوجوه، وبالثالث الموضع الذي يتعلق باللفظ.

(20) الجرجاني، المصدر نفسه، ص: 127.

(21) الجرجاني، المصدر نفسه، ص: 444.

(22) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 256.

(23) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، 1991، ص: 107.

(24) لقمان: 07.

(25) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 243 - 244.

(26) محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 107.

(27) ينظر: محمد خطابي، المرجع نفسه، ص: 149.

* يقصد القرطاجني بالفصل البيتين في غالب الأحيان، إلى حدود أربعة أبيات تتضافر لأجل إيصال معنى معين. ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 150.

(28) القرطاجني (أبو الحسن حازم)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: 2، 1981، ص: 295.

(29) القرطاجني، المرجع نفسه، ص: 310.

(30) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، (د ط)، (د ت)، 1/ 67.

(31) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص: 61 – 62.

(32) ينظر: حلمي خليل، دراسات في اللغة والمعاجم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط: 1، 1998، ص: 275 – 276.

(33) ابن طباطبا (محمد أحمد)، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، ومراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1982، ص: 129.

(34) ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص: 103.

(35) أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، مراجعة: إبراهيم مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د ط)، (د ت)، ص: 100.

(36) أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، ص: 99.

(37) ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص:157.

(38) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 128– 129.

(39) ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص: 158.

(40) السيوطي (جلال الدين)، تناسق الدرر في تناسب السور، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ط: 1، 1983، ص: 78.

(41) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 198.

(42) ينظر: السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور ، ص :78.

(43) ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص: 159.

(44) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 202.

(45) ينظر صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 263.

(46) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 93.

(47) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، المرجع نفسه، 1/ 99.

(48) See: Haliday ,and Ruqaiya Hassan, cohesion in English, Longman, 1st pub, New York, 1976, p: 35-51.

(49) ينظر:محمد مفتاح التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:1996،1، ص:125.

(50) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص:11.

(51) ينظر: سعد عبد العزيز مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، أفاق جديدة، عالم الكتب، القاهرة، ط: 1، 2006، ص: 227.

(52) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 95.

(53) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 28.

(54) ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص: 60.

* نفضل ترجمة السبك Cohésion والحبك Cohérence باعتبارهما أكثر تداولا في التراث النقدي عند العرب، فقد استعملهما الجاحظ في البيان والتبيين، ينظر ص: 67، وأبو هلال العسكري في الصناعتين، ص: 175.

(55) ينظر: إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، ص: 11.

** يعرفه "أحمد عفيفي" بقوله: « الترابط الرصفي فهو أقرب إلى ظاهر النص، يرتبط بالدلالة النحوية التي تعنى بكيفية انتفاع المتلقي بالأنماط والتتابعات الشكلية في استعمال المعرفة والمعنى ونقلهما وتذكرهما ». أحمد عفيفي، نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص: 103.

(56) روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: 103.

(57) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، ط: 4، 2004، من ص: 213 إلى ص: 239 .

(58) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها ، 1/ 95.

(59) تمام حسان، المرجع نفسه، 1/ 95.

(60) ينظر: تمام حسان، المرجع نفسه، 1/ 95.

(61) ينظر: عمر عبد الواحد، التعلق النصي مقامات الحريري أنموذجا، دار الهدى، ط: 1، 2003، ص: 11.

(62) ينظر: محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، ص: 125.

(63) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 96، حيث يقابل مصطلح Cohésion بمصطلح التماسك.

(64) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 97.

(65) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص: 237.

(66) ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص: 79.

(67) عمر عبد الواحد، التعلق النصي مقامات الحريري أنموذجا، ص 12.

(68) فان دايك، النص بنياته ووظائفه، ترجمة: محمد العمري، ضمن كتاب في نظرية الأدب، مقالات ودراسات، سلسلة كتاب الرياض، الرياض، ط: 1، 1997، ص: 122.

(69) سعد عبد العزيز مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية أفاق جديدة، ص: 228.

(70) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص،ص:269/15. وسعد مصلوح،نحو أجرومية للنص الشعري،ص:155.

(71) محمد خطابي، المرجع نفسه، ص: 51.

(72) صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 1/ 96.

(73) ينظر: أحمد مداس، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، ص: 3.